

الأول من آذار يوم اللغة العربيّة

تحية إلى الناطقين بالضاد!

بقلم
سيني الزعني كنتك

تلك المدينة في أرض شنعار حيث بنى أولاد نوح برجهم فلبّل الله لغتهم. وعندما تبكّل الألسن يحلّ الخراب والدمار. فاللغة أداة التفاهم وعنصر التآلف. هي الأم الموحدة والجامعة، الحاضنة لأبنائها.

والأمم التي تحتفل بلغتها الأم تعي تمامًا أن اللغة حافظة للتاريخ والفلسفة والقيم والثقافة وأنها خزان المعارف والعلوم والقوانين والشرائع وهي بالتالي عنصر أساسي للديمومة والبقاء والاستمرار. فإذا اندثرت اللغة وماتت مات أبنائها واندثروا. فهما ينهضان معًا ويموتان معًا. وقد أثبت

التاريخ أن أمة ما، في مرحلة النهضة الاقتصادية والعلمية تفرض لغتها على الآخرين وفي ذلك دليل على تفوقها!

تحتفل الشعوب بلغتها لأنها تدرك تمامًا أن اللغة والفكر توأمان لا ينفصلان وأنه لا منطقتين من دون لغة ولا لغة من دون

منطق، وقد عبّر عن ذلك الكاتب والمفكر الفرنسي بوالو

(Boileau) بقوله:

«Ce qui se conçoit bien s'énonce clairement.»

ما هو مستقبل اللغة العربيّة؟ سؤال يجيب عنه جبران خليل جبران: "مستقبل اللغة العربيّة رهن قوة الابتكار في مجموع الأمم التي تتكلمها، فإن كان لتلك الأمم ذات خاصّة أو وحدة معنويّة وكانت قوة الابتكار في تلك الذات قد استيقظت بعد نومها الطويل كان مستقبل اللغة العربيّة عظيمًا كماضيها، وإلا فلا".

ويضيف جبران: "إن خير الوسائل، بل الوسيلة الوحيدة لإحياء اللغة هي في قلب الشاعر وعلى شفتيه وبين أصابعه، فالشاعر هو الوسيط بين قوة الابتكار والبشر، وهو السلك الذي ينقل ما يحدثه عالم النفس إلى عالم البحث، وما يقرّه عالم الفكر إلى عالم الحفظ والتدوين.

الشاعر أبو اللغة وأمها، تسير حيثما يسير وتربض أينما يربض،

اتخذ المجلس التنفيذي للمنظمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم ALECSO قرارًا يقضي القيام بمشروع خطة إعلامية للاحتفال بيوم اللغة العربيّة وذلك في دورته التسعين التي عُقدت في تونس خلال شهر حزيران ٢٠٠٩.

وارتأت المنظمة بأن يكون الأول من آذار من كل سنة يومًا للغة العربيّة. وفي سياق التعاون الثقافي العربي تمّت المنظمة على وزير الثقافة اللبناني المشاركة في هذا الاحتفال. كما تمّت على وزير التربية والتعليم العالي د. حسن منيمنة تميم تاريخ الأول من آذار على المدارس والجامعات

لإحياء هذه المناسبة. بناءً عليه وبتوجيه من رئيسة المركز التربوي للبحوث والإنماء د. ليلي فياض اتخذ مجلس الأخصائيين في المركز التربوي قرارًا يقضي بتخصيص بعض الصفحات من المجلة التربوية لأدباء لبنانيين أسهموا في النهضة الثقافية العربيّة وفي الحفاظ على لغة الضاد.

عيدًا للغة الأم! قرارٌ حكيم ولو جاء متأخرًا. المجلة التربوية تلي الدعوة بفخر واعتزاز. فاللسان هو ما يميّز الإنسان عن سائر مخلوقات. وللتعريف بالنوع البشري اختار اللغوي الفرنسي الشهير كلود حجاج (Claude Hagège) عنوان "إنسان الكلام" (L'Homme de Paroles) لكتابه الصادر عن دار فايبار سنة ١٩٩٦.

ويقول ناصيف نصّار في كتابه "الذات والحضور" "كل ما يقوله الفرد ويكتبه بهذا اللسان أو بذاك هو نتاج له وسمة من سمات هويته. وهكذا الأمر بالنسبة إلى الجماعة من حيث ممارستها لمنظومة لسانية واحدة".

كثيرة هي الإشارات إلى أهميّة النطق في حياة الإنسان، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: "في البدء كانت الكلمة" "كلام الله المنزل" "الإنسان بأصغريه: قلبه ولسانه". وكلنا يعرف قصة بابل،

آخرين.

ويؤكد على صحة اختيارنا ما جاء على لسان الأديب الكبير أمين نخلة: "كان الشيخ إبراهيم المنذر، إذا تلقف كرة البحث في العربية، بين فرائد وجمل، بحرًا لا ساحل له! فهو قد أحاط بشاذٍ ومقيس، ووقف على غرائب ونوادر، وغاص على دقائق واستقصى أطرافًا، وجمع أشتاتًا ما شاء الله له. ذلك إلى ذاكرة تحفظ للفور، وتُحضر المحفوظ عند الاقتضاء. فإذا هو تلا عن لوح قلبه، فكأنما يستفرغ من وعاء، وإذا عُرِضت له المسألة حضر الشاهد لساعته، ييدر من متن، أو حاشية، أو تعليقة، أو لحق."

وإنني لا أعرف في علماء زماننا من رزق تلك القوة في الحافظة إلا الشيخ عبد القادر المغربي علامة وقته رحمه الله،

والشيخ عبد الله العلابي علامة هذا الوقت حفظه الله."

أحب المنذر اللغة العربية ونادى بالحفاظ عليها وناضل في سبيلها. تناولها كخطيب ماهر بنبرته العالية، تارة منذرًا محذرًا وطورًا ثائرًا أو غاضبًا وذلك من موقعه كناطق في البرلمان اللبناني. أسس المنذر المجمع

العلمي اللبناني وكان عضوًا فيه كما كان عضوًا في المجمع العلمي العربي الذي اعترف للمنذر بدفاعه عن اللغة العربية ضد المستعمرين وكان في ذلك رائدًا طليعيًا:

"وأول من نفخ في بوق هذه النهضة المباركة في لبنان هو النائب الحرّ الجريء الشيخ إبراهيم المنذر. ومما قاله المنذر النائب: "يجب أن تجاري لغتنا اللغات الحية فتصير لغة اشتقاق، وإذا ظلت سماعية جافة (وهي أوسع اللغات وأفصحها) عقها بنوها وانصرفوا عنها إلى سواها من لغات الغرب (وقد فعلوا) وكانت عاقبتها الموت المحتّم. وفي اعتقادي أنّ فقدان العربية هو فقدان جوهر الفصاحة والبلاغة، بل هو فقدان شعب حيّ نشيط ذي تاريخ مجيد. واللغات التي جارى أربابها روح العصور ومشوا بها إلى جانب الحضارة والعمران، اتسعت دائرتها وارتقت فروعها وانتشرت آثارها وآدابها وكثر عارفوها والمتكلمون بها."

أحب المنذر اللغة العربية ونادى بالحفاظ عليها وناضل في سبيلها. تناولها كخطيب ماهر بنبرته العالية، تارة منذرًا محذرًا وطورًا ثائرًا أو غاضبًا وذلك من موقعه كناطق في البرلمان اللبناني.

أما المنذر الشاعر فلم يحب لفته الأم نصب بل عقها عشق المتيم الولهان. خاطبها كما أرادها صبيّةً مفنجةً تختال بثيابها الجديدة الأنيقة لا كعجوزٍ بزّيها القديم البالي.

وإذا ما قضى جلست على قبره باكيةً منتحبةً حتى يمرّ بها شاعر آخر ويأخذ بيدها. وإذا كان الشاعر أبا اللغة وأمها فالمقلّد ناسج كنفها وحافر قبرها.

أعني بالشاعر كل مخترع كبيراً كان أو صغيراً، وكل مختلق عظيمًا كان أو حقيرًا، وكلّ محبّ للحياة المجردة إمامًا كان أو صلوكًا، وكلّ من يقف متهيّبًا أمام الأيام والليالي فيلسوفًا كان أو ناطورًا للكروم.

أعني بالشاعر ذلك المتعبّد الذي يدخل هيكل نفسه فيجثو باكيةً فرحًا نادبًا مهللاً مصغيًا مناجيًا ثم يخرج وبين شفثيه ولسانه أسماء وأفعال وحروف واشتقاقات جديدة لأشكال عبادته التي تتجدّد في كلّ يوم وأنواع انجذابه التي تتغيّر في كلّ ليلة فيضيف بعمله هذا وترًا فضيًا إلى قيّارة اللغة وعودًا طيبًا إلى موقدها. أمّا المقلّد فهو الذي يردّد صلاة المصلين وابتهاال المبتهلين بدون إرادة ولا عاطفة فيترك اللغة حيث يجدها والبيان الشخصي حيث لا بيان ولا شخصية."

الفلاسفة والشعراء والمفكّرون واللغويّون اللبنانيون كانوا دائماً في طليعة المهتمين باللغة العربية والحفاظ عليها. اخترنا من بينهم لغويين اثنين هما الشيخان إبراهيم المنذر وعبد الله العلابي على أن تكون لنا محطات لاحقة مع مبدعين



الشيخان إبراهيم المنذر وعبد الله العلابي.

أما المنذر الشاعر فلم يحب لغته الأم فحسب بل عَشِقَها عشق المَتمِّمِ الولهان. خاطبها كما أرادها صبيةً مغناجئةً تختال بثيابها الجديدة الأنيقة لا كعجوزٍ بزِيَّها القديم البالي:

لعينيك، يا ذات العلاء، فما ليَا
لعينيك، يا روح المعاني ومصدر البيان ونور المنطق المتلاليَا
لعينيك، يا أم اللغات، حُشاشتي
وسواك حبيبٌ أفتديه بماليَا
وقُوَّةُ إدراكي، وقومِي، وآليَا

وفي قصيدة أخرى يخاطبها قائلاً:

بَرَزَتْ هيفاء في شَرخِ الصِّبَا
كُلِّمًا جُنَّ الدُّجَى تَطْلُعُ مِنْ
ومع الفَجْرِ تَجَلَّى نُورُهَا
لُغَةُ الضَّادِ، وَقَدْ كَانَتْ بِنَا
فِي بَوَادِي العُربِ والطَّوْدِ الأَشَمِّ
جَبْهَةَ الأفاقِ كالبَدْرِ الأَتَمِّ
كَضِيَاءِ الشَّمْسِ تجلُّو كُلَّ هَمِّ
هَدَفًا لِمَجْدِ، والخيرِ الأَعَمِّ

ويعبر عن حبه في موضع آخر:

لعينيك، يا أخت الكواكب في السَّمَا
لكِ اللُّهُ، يا أم اللُّغات، فَإِنِّي أَحِبُّكَ
وأهْوَى لِسَانَ العُربِ، والفِثْيَةَ
فدى كُلِّ مَنْ صَلَّى وَصَامَ وَسَلَّمَا
وَخِيَا يَمْلَأُ القَلْبَ والفَمَا
الألى أَحَبُّوا لِسَانَ العُربِ حُبًّا مُتِيَمًا

ويعترف مفاخرًا "إنها أمي".

لم يكتفِ المنذر بالخطب والأشعار بل قضى معظم عمره يدرِّس اللُّغة العربيَّة:

على مِنْبَرِ التَّدريسِ في كُلِّ مَعْهَدٍ
قَضَيْتُ حَيَاتِي هَادِيًا وَمُعَلِّمًا

أو من بالأسوار، هذه قاعدة كل تحركٍ عندي، لأن الإيمان بها إيمان بالتحديد والجمود. فسبيل أبناء الحركة أنهم يتطوِّرون، وعذرهم أنهم يحسون بتبعية الحياة".

اليوم وبعد مرور عشرات السنين على إنذارات وتنبهات حكماننا وشعرائنا وفلاسفتنا نفق لنعيد العيد الأول للُّغة العربيَّة. ولكن ماذا فعلنا؟ هل اهتدينا بهديهم؟ هل امتثلنا لنصائحهم؟ وما هي حالُّ لغتنا مقارنةً بلغات العالم؟ وهل يُقبل أبنائنا على تعلُّمها؟ هل تواكب العلوم العصرية؟ لا، هو الجواب الذي

يأتينا من الدكتور أحمد شفيق الخطيب رئيس دائرة المعاجم في مكتبة لبنان وعضو مجمع اللُّغة العربيَّة في القاهرة ودمشق. وقد أعلن أمام مجمع اللُّغة العربيَّة في دمشق سنة ٢٠٠١: "إن المستوى الفنِّي

**الشيخ العلايلي لغويُّ قدير
وعالمٌ فذٌ تميَّزَ بغزارة الإنتاج،
والقدرة على التحليل
والتنظير اللُّغويِّين. أحبُّ الفن
والنقد الأدبي والشعر ولكنه
فضَّل العمل اللُّغويَّ المعجميَّ
فعاش مع الورق والقلم
كالنحات مع الازميل والحجر.**

أما الشَّيخ عبد الله العلايلي فقد نذر نفسه للُّغة العربيَّة وكرَّس لها معظم أوقات حياته وأحدث كتابه الصادر سنة ١٩٣٨ "مقدمة لدرس لغة العرب" ثورة في عالم اللُّغة. الشَّيخ العلايلي لغويُّ قدير وعالمٌ فذٌ تميَّزَ بغزارة الإنتاج، والقدرة على التحليل والتنظير اللُّغويِّين. أحبُّ الفن والنقد الأدبي والشعر ولكنه فضَّل العمل اللُّغويَّ المعجميَّ فعاش مع الورق والقلم كالنحات مع الازميل والحجر واستحقَّ ما قاله عنه الكاتب والباحث وفيق غريزي: "إن اللُّغة العربيَّة لا بدَّ لها من استلهاام

النهج الذي اختطَّه العلايلي لها. والمعجم العربي لا محالة صائر إلى ما رسمه له". وقد تميَّز العلايلي برفض الجمود كما سعى إلى تهديم الأسوار وبناء الجسور وآمن بالتطوير والتحديث وهو القائل: "لست

اللغة من ذوي الخبرة الطويلة (ومنهم من شارك معنا في تحضير هذا العدد) فننقذ ما يمكن إنقاذه. ولن ن فقد الأمل لأنه كما قال المنذر: "ما ماتت لغة في صدور رجالها هممٌ وفي قلوبهم شعور، وفي رؤوسهم أدمغة تفكر في مصير الشعوب ومجاري الأمور." هذا العدد من المجلة التربوية يحتوي على ثلاثة أقسام: في القسم الأول حاولنا تسليط الضوء على لغويين لبنانيين هما الشيخان: ابراهيم المنذر وعبد الله العلابي وعلى بعض من شؤون اللغة العربية.

أما القسم الثاني، فخصصناه للشاعر سعيد عقل تحت عنوان "مبدعٌ من لبنان". ذلك أن سعيد عقل أدخل الشعر اللبناني والعربي في عالم الحداثة والابتكار وحفظ للبنان موقعاً متميزاً في دنيا الشعر والشعراء، إضافة إلى أنه خصّ لبنان بأجمل القصائد وأروعها.

أما الملف التربوي فقد أضأنا فيه على المناهج المطوّرة لمرحلة الروضة والتي تمرّ الآن بمرحلة تجريبية وعلى مفهوم الكفاية (compétence) الذي تنطلق منه المفاهيم والاستراتيجيات التعليمية الجديدة. والجدير بالذكر أن المركز التربوي أصدر سنة

٢٠٠٩ معجم الكفايات باللغات الثلاث: عربي/فرنسي/إنكليزي ووضع بين أيدي التربويين والمهتمين على مستوى لبنان والعالم العربي.

نتمنى أن يعود هذا العدد بالفائدة على المعلمين وسائر التربويين وجميع الناطقين بلغة الضاد الذين سيحتفلون معنا بتاريخ الأول من آذار من كل سنة، آملي أن يكون قرار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بمثابة اليقظة الفكرية فنستفيق نحن جميعاً: صانعي القرار، باحثين ومبتكرين، مسؤولين وتربويين، من ثباتنا العميق ونبدأ ورشة عمل لغوية تعيد لغتنا إلى عصر نهضتها وأيام عزّها

والعلمي الذي توصل إليه العمل المعجمي في لغات العولمة يُخشى أن يُحوّل هذا الوعي لصالح المعاجم الأجنبية التي غدت تنافس المعجم العربي كمراجع، تثقيفي بخاصة، على أكثر من مستوى. وإنّي لأتطلّع الى معجم عربي بمستوى لغوي وفني ومعلوماتي بتقانات معجمية حديثة يُضاهي معاجم (OXFORD) أو (Larousse) مثلاً، معجمٌ يتواجد في كل بيت، ويُتهادى في كل مناسبة. لقد كنّا السّابقين، وكان المعجم العربي سباقاً معنا وبنا. وبتخلّفنا السلجوقي المغولي العثماني والقبليّ تخلّف المعجم العربي معنا وبنا.

لأسف لم نسمع المنذر عندما طالب بتهديب اللغة وتفتيتها ولم نطرح ما هو فاسد وجليظ من الألفاظ ولم: "نسُنّ قواعد جديدة توافق روح العصر ونفتح باباً للاشتقاق نتوصل منه إلى تسمية الأشياء الجارية لدينا في الاستعمال بلغة العرب".

اليوم وبعد عقودٍ من الزمن على غياب جبران والمنذر والعلابي وغيرهم من المفكرين والرؤويين، نجد الدعوة إلى قيام مجمع لغوي لبناني ومجمع واحد موحد على مستوى الوطن العربي وبهمة وجهود المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. وندعو المجلس النيابي اللبناني إلى البحث في تأسيس أكاديمية للغة والآداب والفنون على غرار الدول المتقدمة.

الفرنسيون مثلاً يهدّبون ويعدّلون باستمرار لجعل لغتهم في مصاف اللغات الحيّة، التي يجري فيها الحذف والتنقيح والإضافة، تسهلاً لسبب تحصيلها وإيماناً منهم بأن الأمة يمكنها أن تحافظ على القديم ولكن عليها أن لا تحطّم طموح أبنائها على عتبة الماضي. واللغة الحيّة والتي لا يمكنها أن

تموت، هي التي سمع أبنائها سؤال جبران خليل جبران في "البدائع والطرائف" "أظنون أن الحياة تستر جسدها بالحرق البالية؟" "كما سمعوه يقول في "النبي" "الحياة لا تقيم في منازل الأمتس!"

اليوم وبعد عقودٍ من الزمن على غياب جبران والمنذر والعلابي وغيرهم من المفكرين والرؤويين، نجد الدعوة إلى قيام مجمع لغوي لبناني ومجمع واحد موحد على مستوى الوطن العربي وبهمة وجهود المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. وندعو المجلس النيابي اللبناني إلى البحث في تأسيس أكاديمية للغة والآداب والفنون على غرار الدول المتقدمة. نعم أكاديمية يعمل أعضاؤها على ملاحقة قضايا اللغة وأصولها وتعايرها وعلى الاهتمام بوضع المعاجم العصرية وإعداد وتأهيل المعجميين والمعرّبين والمتخصّصين في علم المصطلح. علنا في ذلك نستفيد من إرشادات بعض أساتذة